شرح السنة للإمام البربهاري
منارةٌ سلفيةٌ في زمن الفتن

مقدمة📖

في غياهبِ التاريخ الإسلامي، حيثُ تتلاطمُ أمواجُ الفتنِ والشبهات، يبرزُ كُتُبٌ تُنيرُ الدربَ وتُرسي القواعدَ، لتكونَ بمثابةِ مناراتٍ يهتدي بها السائرونَ على نهجِ الحقِّ. ومن بينِ هذه المناراتِ الساطعة، يبرزُ "شرح السنة" للإمام أبي محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري (ت ٣٢٩هـ) كواحدٍ من أهمِّ المؤلفاتِ التي تُجلّي عقيدةَ أهلِ السنةِ والجماعةِ في أصولِ الدينِ وفروعِهِ، وتُحذّرُ من البدعِ والأهواءِ. هذا البحثُ سيتناولُ هذا السفرَ العظيمَ بالتحليلِ والتدقيقِ، مُسلّطًا الضوءَ على أهميتِه، منهجِهِ، وسماتِه، مع ذكرِ بعضِ أبرزِ المسائلِ التي تطرقَ إليها.

الإمام البربهاري: لمحةٌ عن حياته وعصره🧔

الإمامُ البربهاريُّ كانَ عَلَمًا من أعلامِ السلفِ الصالحِ في القرنِ الرابعِ الهجريّ، وهوَ من تلامذةِ الإمامِ المزنِّيِّ، أحدِ أشهرِ تلاميذِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ. عاشَ الإمامُ البربهاريُّ في فترةٍ مضطربةٍ شهدتْ انتشارَ العديدِ من الفرقِ الضالةِ والمذاهبِ المنحرفةِ، مثلِ المعتزلةِ والجهميةِ والرافضةِ، التي بدأتْ تُدْخِلُ البدعَ في أصولِ الدينِ وتُحرِّفُ فهمَ النصوصِ الشرعيةِ. وقد كانَ الإمامُ البربهاريُّ من أشدِّ المدافعينَ عن السنةِ، والمنافحينَ عن عقيدةِ السلفِ الصالحِ، حتى قيلَ عنهُ: "إذا رأيتَ الرجلَ يحبُّ البربهاريَّ، فاعلمْ أنَّهُ صاحبُ سنةٍ."

أهمية كتاب شرح السنة🌟

يُعدُّ كتابُ "شرح السنة" للإمامِ البربهاريِّ وثيقةً تاريخيةً وعقديةً بالغةَ الأهميةِ لعدةِ أسبابٍ:

١. **تمثيلٌ لعقيدةِ السلفِ:** يُقدّمُ الكتابُ خلاصةً وافيةً لعقيدةِ أهلِ السنةِ والجماعةِ كما فهمها وعملَ بها السلفُ الصالحُ، بعيدًا عن التأويلاتِ الفلسفيةِ والبدعِ الكلاميةِ.

٢. **مواجهةُ البدعِ والأهواءِ :**جاءَ الكتابُ في سياقِ الردِّ على الفرقِ الضالةِ التي انتشرتْ في عصرِ الإمامِ، فكانَ بمثابةِ سدٍّ منيعٍ في وجهِ الانحرافاتِ.

٣. **الاختصارُ والشمولُ :**على الرغمِ من صغرِ حجمِ الكتابِ، إلا أنَّهُ جمعَ جلَّ مسائلِ العقيدةِ وأصولِ السنةِ، بأسلوبٍ موجزٍ وواضحٍ.

٤. **منهجُ الاعتصامِ بالكتابِ والسنةِ :**يُؤكّدُ الكتابُ على ضرورةِ التمسكِ بالكتابِ والسنةِ وفهمِهما بفهمِ السلفِ الصالحِ، والتحذيرِ من الرأيِ والقياسِ في مسائلِ العقيدةِ.

منهج الإمام البربهاري في شرح السنة منهجٌ علميٌّ متينٌ📚

اتبعَ الإمامُ البربهاريُّ منهجًا واضحًا ومُحكمًا في كتابه، يمكنُ تلخيصُه في النقاطِ التاليةِ:

١. **التركيزُ على الأصولِ :**بدأَ الإمامُ بتوضيحِ أصولِ الاعتقادِ كالإيمانِ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورسلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ خيرِه وشرِّهِ.

٢. **الاستدلالُ بالنصوصِ الشرعيةِ :**على الرغمِ من أنَّ الكتابَ ليسَ كتابَ حديثٍ بالمعنى الحرفيِّ، إلا أنَّ الإمامَ يعتمدُ بشكلٍ كبيرٍ على النصوصِ الشرعيةِ من الكتابِ والسنةِ في تقريرِ المسائلِ.

٣. **الإيجازُ والاختصارُ :**يُعرفُ الكتابُ بأسلوبِه الموجزِ، حيثُ يُقدّمُ المعلومةَ بشكلٍ مُركّزٍ ومُباشرٍ، دونَ إطالةٍ أو تعقيدٍ.

٤. **التحذيرُ من البدعِ :**يُولِي الإمامُ اهتمامًا كبيرًا بالتحذيرِ من البدعِ وأهلِها، ويُبيّنُ خطرَها على الدينِ والمجتمعِ.

٥. **التسليمُ المطلقُ للنصوصِ :**يُشدّدُ الإمامُ على ضرورةِ التسليمِ المطلقِ للنصوصِ الشرعيةِ، وعدمِ الخوضِ في تأويلاتٍ لا سندَ لها من الشرعِ.

٦. **أهميةُ الجماعةِ والسمعِ والطاعةِ :**يُؤكّدُ الكتابُ على أهميةِ لزومِ جماعةِ المسلمينَ، والسمعِ والطاعةِ لوليِّ الأمرِ في غيرِ معصيةٍ، والتحذيرِ من الخروجِ عليهِ.

أبرز المسائل العقدية التي تناولها الكتاب📜

تطرقَ "شرح السنة" إلى جملةٍ وافرةٍ من المسائلِ العقديةِ، منها على سبيلِ المثالِ لا الحصرِ:

- **توحيدُ اللهِ عزَّ وجلَّ :**التأكيدُ على أنَّ اللهَ واحدٌ أحدٌ، ليسَ كمثلِه شيءٌ، وأنَّهُ الخالقُ الرازقُ المدبرُ.
- **الإيمانُ بالقدرِ :**أنَّ كلَّ شيءٍ بقضاءٍ وقدرٍ، وأنَّ اللهَ علمَ ما كانَ وما سيكونُ وما لم يكنْ لو كانَ كيفَ كانَ يكونُ.
- **الإيمانُ بأسماءِ اللهِ وصفاتِه :**إثباتُ ما أثبتَهُ اللهُ لنفسِه وما أثبتَهُ لهُ رسولُه من الأسماءِ والصفاتِ، من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ.
- **القرآنُ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ :**هذهِ المسألةُ كانتْ من أهمِّ المسائلِ التي خاضَ فيها السلفُ في وجهِ الجهميةِ والمعتزلةِ، ويُؤكّدُ الإمامُ البربهاريُّ على هذا الأصلِ العظيمِ.
- **رؤيةُ المؤمنينَ لربهم في الآخرةِ :**يُثبتُ الإمامُ رؤيةَ المؤمنينَ لربهم يومَ القيامةِ رؤيةَ حقيقةٍ لا تكييفَ فيها.
- **الإيمانُ بالشفاعةِ والحوضِ والصراطِ والميزانِ والجنةِ والنارِ :**وهيَ من أصولِ الإيمانِ باليومِ الآخرِ.
- **الإيمانُ بصحابةِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ :**توقيرُهم ومحبتُهم، واعتقادُ فضلِهم، والكفُّ عن الخوضِ فيما شجرَ بينَهم.
- **النهيُ عن الجدالِ والمراءِ في الدينِ :**التحذيرُ من الخوضِ في مسائلِ العقيدةِ بالرأيِ والجدالِ العقيمِ، والاكتفاءُ بما جاءَ بهِ النصُّ.

أثر الكتاب وتأثيره 🌐

حظيَ كتابُ "شرح السنة" بقبولٍ واسعٍ لدى أهلِ العلمِ، وتلقّوه بالقبولِ والتسليمِ. وقد اعتمدَ عليهِ الكثيرُ من العلماءِ بعدَ الإمامِ البربهاريِّ كمرجعٍ أصيلٍ في العقيدةِ السلفيةِ. وما زالَ يُدرَّسُ في المساجدِ والجامعاتِ الإسلاميةِ حتى يومنا هذا، كمنهجٍ لتعليمِ العقيدةِ الصحيحةِ وتحصينِ الأجيالِ من الانحرافاتِ الفكريةِ.

خلاصةٌ ونتائج 💡

يُمثّلُ كتابُ "شرح السنة" للإمامِ البربهاريِّ إرثًا عظيمًا للأمةِ الإسلاميةِ، فهو ليسَ مجردَ كتابٍ في العقيدةِ، بل هوَ منهجٌ في فهمِ الدينِ والتعاملِ مع النصوصِ الشرعيةِ، ودرعٌ واقٍ من البدعِ والضلالاتِ. لقد قدّمَ الإمامُ البربهاريُّ من خلالِ هذا السفرِ النفيسِ خدمةً جليلةً للإسلامِ والمسلمينَ، ببيانِهِ العقيدةَ السلفيةَ الصافيةَ، ودعوتهِ إلى التمسكِ بها، والتحذيرِ من كلِّ ما يُخالفُها.
ولعلَّنا اليومَ أحوجُ ما نكونُ إلى قراءةِ هذا الكتابِ وفهمِه والعملِ بما جاءَ فيهِ، لتثبيتِ العقيدةِ الصحيحةِ في النفوسِ، ومواجهةِ التحدياتِ الفكريةِ المعاصرةِ.
لقد أصبح "شرح السنة" مرجعًا أساسيًا لكل طالب علم وباحث في العقيدة، ودليلًا واضحًا للمسلم الذي يسعى لفهم دينه على بصيرة ونور.

مكانة الكتاب بين كتب العقيدة 🏆📚

يُعتبر "شرح السنة" من الكتب المرجعية التي تُشكل حجر الزاوية في دراسة عقيدة أهل السنة والجماعة. وعلى الرغم من صغر حجمه مقارنةً بكتب أخرى أطول وأكثر تفصيلاً، إلا أنه يتميز بتركيزه الشديد وعمقه في تناول الأصول. يمكننا أن نضعه إلى جانب كتب عظيمة مثل:

- **السنة للإمام أحمد بن حنبل :**الذي يُعد الأساس الذي بُنيت عليه كثير من كتب السلف في العقيدة.
- **عقيدة السلف أصحاب الحديث للإمام الصابوني :**الذي يُفصل بعض المسائل التي أشار إليها البربهاري بإيجاز.
- **الشريعة للآجري :**الذي يُعالج مسائل العقيدة بمنهج أوسع وأكثر تفصيلاً.

ما يميز "شرح السنة" هو أنه بمثابة "دليل موجز" للعقيدة السلفية، يُسهل على طالب العلم المبتدئ استيعاب الأصول، ويُقدم للمتخصص إطارًا مرجعيًا لأصول المذهب الحنبلي والسلفي عمومًا. إنه يُبين بوضوح الفارق بين "السنة" و"البدعة" ويضع الخطوط الفاصلة بينهما.

أسلوب الإمام البربهاري وخصائصه اللغوية 📝

يتميز أسلوب الإمام البربهاري في "شرح السنة" بعدة خصائص تُعزز من قوة الرسالة ووضوحها:

١. **الوضوح والمباشرة :**يستخدم الإمام لغة واضحة لا لبس فيها، بعيدة عن التعقيدات الفلسفية أو الجدل الكلامي الذي كان سائدًا في عصره. يتحدث بلهجة الواثق المستبين للحق.

٢. **التأكيد والتكرار :**يميل إلى تأكيد بعض الأصول والمبادئ بعبارات قوية وحاسمة، مما يُثبت المعنى في ذهن القارئ ويُشعره بأهمية المسألة.

٣. **النصح والإرشاد :**ليس الكتاب مجرد سرد لمسائل عقدية، بل يتخلله نصوص تحمل طابع النصح والإرشاد للمسلم في كيفية الالتزام بالسنة والابتعاد عن البدع. يقول مثلاً: "واعلموا أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر".

٤. **اللغة الشرعية :**يستخدم مصطلحات شرعية دقيقة، ويُعرف كل مصطلح بمعناه الشرعي المعتبر عند السلف.

٥. **التحذير الشديد من البدع وأهلها :**يُلاحظ القارئ أن الإمام يُكرر التحذير من أهل البدع والضلال، ويُبين خطرهم على الأمة، وهذا يعكس حرصه الشديد على نقاء العقيدة.

بعض الفوائد والعبر المستخلصة من الكتاب✨

١. **أهمية الثبات على الحق :**يُظهر الكتاب كيف أن السلف الصالح، وعلى رأسهم الإمام البربهاري، كانوا يواجهون الفتن والبدع بثبات وقوة، متمسكين بالكتاب والسنة.

٢. **خطر البدع صغيرها وكبيرها :**يُبين أن البدع لا تظهر كبيرة مرة واحدة، بل تبدأ صغيرة ثم تتفاقم، وأن الشبهات تتوالد، لذا يجب الحذر من أول شرارة للبدعة.

٣. **وجوب لزوم الجماعة ونبذ الفرقة :**يُشدد على أهمية الاجتماع على الحق والتحذير من التفرق والاختلاف الذي يُضعف الأمة ويُعرضها للضلال.

٤. **المنهج الصحيح لتلقي الدين :**يُؤكد على أن الدين يُتلقى من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وليس بالعقل المجرد أو الأهواء الشخصية.

٥. **التوازن بين الخوف والرجاء :**على الرغم من تحذير الإمام الشديد من المعاصي والبدع، إلا أنه يُبين أن الرجاء في رحمة الله ومغفرته لا يُفارق قلب المؤمن.

مقارنات موجزة مع كتب أخرى 🔄

- **"لمعة الاعتقاد" لابن قدامة المقدسي :**كلاهما كتاب موجز في العقيدة السلفية. "شرح السنة" للبربهاري يُركز أكثر على التحذير من البدع والفرق المعاصرة له، بينما "لمعة الاعتقاد" لابن قدامة يتميز بالتقسيم المنهجي الواضح للمسائل العقدية مع استدلالات حديثية قوية.
- **"العقيدة الواسطية" لشيخ الإسلام ابن تيمية" :**العقيدة الواسطية" أكثر تفصيلاً وتنظيماً، وتُركز بشكل أكبر على أسماء الله وصفاته وبيان مذهب أهل السنة والجماعة فيها، مع ردود مفصلة على الفرق المخالفة. بينما "شرح السنة" للبربهاري يُقدم إطارًا عامًا شاملاً للعقيدة مع التركيز على مجمل الأصول والتحذير من البدع.

أهمية الدراسة والتدريس المعاصر للكتاب 🎓

في عصرنا الحالي الذي يشهد انتشارًا واسعًا للشبهات والتحديات الفكرية، تزداد أهمية دراسة "شرح السنة" للإمام البربهاري. فهو يُقدم للأجيال الجديدة بوصلة واضحة تهديها إلى الصراط المستقيم، وتحصنها من موجات الانحراف. تدريسه في المساجد والمعاهد والجامعات يُعزز من فهم العقيدة الصحيحة، ويُنمي الوعي بخطورة البدع والأهواء، ويُربي الشباب على منهج السلف الصالح في تلقي الدين والعمل به.

خاتمة 🕊️

يظل "شرح السنة" للإمام البربهاري عملاً خالداً يشهد على عمق علم الإمام وغزارة معرفته، وإخلاصه في الذود عن حياض السنة. إنه دعوة صريحة للتمسك بالحق، والابتعاد عن البتن، ونهج حياة للمسلم الذي يريد أن يسلك طريق النجاة. فجزى الله الإمام البربهاري خير الجزاء على هذا السفر العظيم الذي ما زال يُضيء دروب طلبة العلم وعامة المسلمين إلى يومنا هذا.

السياق التاريخي والفكري للكتاب وتأثيره 🕰️

لفهم "شرح السنة" بشكل أعمق، لا بد من استحضار السياق التاريخي والفكري الذي نشأ فيه الإمام البربهاري. كان القرن الرابع الهجري فترة مضطربة من الناحية السياسية والعقدية:

١. **ضعف الخلافة العباسية :**بدأت الدولة العباسية تعاني من ضعف متزايد، مما أفسح المجال لظهور قوى إقليمية وزيادة نفوذ الفرق المختلفة.

٢. **تصاعد نفوذ الفرق الكلامية :**كانت المعتزلة والجهمية، ثم الأشاعرة في مرحلة التأسيس، تُقدم رؤى للعقيدة تعتمد على العقل والمنطق بشكل كبير، مما أدى إلى تأويل نصوص الصفات والخوض في مسائل لم يخض فيها السلف.

٣. **ظهور حركات باطنية وشيعية :**شهدت هذه الفترة نشاطًا ملحوظًا للحركات الباطنية كالقرامطة والإسماعيلية، وكذلك للفرق الشيعية التي بدأت تُنظم نفسها وتُطرح رؤاها السياسية والعقدية.

٤. **تأثر بعض الفقهاء بالفلسفة والمنطق :**بدأ بعض الفقهاء يتأثرون بالمناهج الفلسفية اليونانية، مما أثر على طريقة استدلالهم ونظرهم في مسائل الدين.

في هذا المشهد المضطرب، جاء الإمام البربهاري ليُقدم "شرح السنة" كبيان واضح وصريح لمنهج أهل السنة والجماعة، مؤكدًا على ضرورة الرجوع إلى الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح، ومحذرًا بشدة من الانجراف وراء هذه التيارات الفكرية الجديدة. لقد كان الكتاب بمثابة "جدار حماية" ضد التحديات العقدية في عصره، ورسالة واضحة للأجيال بأن طريق النجاة هو التمسك بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

تفصيل أكثر في بعض المسائل العقدية التي تناولها الكتاب 🔍

.1مسألة القرآن كلام الله غير مخلوق:

هذه المسألة كانت من أبرز وأهم المسائل التي فصل فيها الإمام البربهاري، لأنها كانت محنة عظيمة للعماء في عصره.

- **أصل الخلاف :**نشأت المحنة من قول الجهمية والمعتزلة بأن القرآن مخلوق، وهو قول يستلزم لوازم باطلة تتعلق بصفة الكلام لله عز وجل، وبكون القرآن ليس كلام الله حقيقة.
- **موقف السلف :**الإمام البربهاري يؤكد موقف السلف الراسخ بأن القرآن كلام الله عز وجل، تكلم به حقيقة، حروفه ومعانيه، وليس مخلوقًا. وهو بهذا يُتابع الإمام أحمد بن حنبل الذي ثبت ثباتًا عظيمًا في هذه المحنة.
- **خطورة المسألة :**يرى الإمام أن القول بخلق القرآن بدعة عظيمة تُخرج صاحبها عن السنة، لأنها تمس أصول الاعتقاد في صفات الله تعالى وفي قدسية كلامه.

.2الإيمان بالقدر خيره وشره:

- **شمول القدر :**يؤكد الإمام أن كل ما يجري في الكون، من خير وشر، حلو ومر، فهو بتقدير الله وعلمه ومشيئته وخلقه.
- **الرد على منكري القدر :**يُحذر من الغلاة في القدر (القدرية) الذين ينفون علم الله السابق أو يرون أن العبد مستقل تمامًا بفعله، ومن الغلاة الجبرية الذين يسلبون العبد اختياره ومسؤوليته.
- **التوازن :**يُقدم المذهب الوسطي لأهل السنة الذي يرى أن الله علم كل شيء وقدره، وأن للعبد مشيئة واختيارًا يثاب عليه أو يُعاقب.

.3التحذير من الجدال والمراء في الدين:

- **مفهوم الجدال المذموم :**ليس المقصود التحاور الهادف لإظهار الحق، بل الجدال بالباطل أو الجدال الذي يُقصد منه الانتصار للرأي الشخصي أو إثارة الشبهات في مسائل العقيدة الثابتة.
- **علة التحذير :**يرى الإمام أن الخوض في الجدال الكلامي يُؤدي إلى تشتيت الأذهان، وإثارة الشبهات، والوقوع في التأويلات البعيدة عن مراد الشارع، والنزاع والفرقة بين المسلمين.

- **منهج السلف :**يُلخص منهج السلف في التسليم المطلق للنصوص، وتفويض ما أشكل إلى الله مع اعتقاد الظاهر، والابتعاد عن تعميق الخوض فيما لم يأذن به الشرع.

الشروح والتعليقات على الكتاب 🖊️📚

لأهمية "شرح السنة"، حظي باهتمام كبير من العلماء الذين قاموا بشرحه وتوضيح معانيه، ومن أبرز الشروح:

- **شرح الشيخ صالح الفوزان :**من أبرز الشروح المعاصرة، يتميز بالوضوح والتبسيط، وتوضيح المسائل بأسلوب عصري.
- **شرح الشيخ عبد المحسن العباد :**شرح ماتع ومفيد، يركز على تبيان عقيدة السلف وبيان الأدلة.
- **شرح الشيخ عبيد الجابري :**شرح صوتي مُسجل، يُبين فيه الشيخ معاني الكتاب ويلفت الانتباه إلى دلالاته.
- **شرح الشيخ ربيع بن هادي المدخلي :**من الشروح المتميزة التي تركز على الجانب المنهجي في التحذير من البدع والأهواء.

هذه الشروح تُبرز استمرارية أثر الكتاب وحيويته، وتُظهر كيف أن علماء العصور المتأخرة ما زالوا يجدون فيه معينًا لا ينضب لتأصيل العقيدة الصحيحة وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

"شرح السنة" ودوره في التربية العقدية🤲

لم يكن الإمام البربهاري يهدف فقط إلى تقديم كتاب عقيدة جاف، بل كان يهدف إلى تربية المسلم على العقيدة الصحيحة وتعميق الإيمان في قلبه. لذا، نجد في الكتاب جوانب تربوية مهمة:

١. **تعظيم نصوص الوحي :**يُربي الكتاب القارئ على تعظيم الكتاب والسنة وتقديمها على أي رأي أو هوى.
٢. **الرضا والتسليم :**يُعلم المسلم الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم لأوامره ونواهيه، حتى وإن لم يدرك الحكمة الكاملة.

٣. **محبة الصحابة والأئمة :**يُرسخ محبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واحترامهم، ومحبة أئمة السنة الذين ساروا على نهجهم.

٤. **التواضع وترك التكلف :**يدعو إلى التواضع في طلب العلم وترك التكلف والتعمق فيما لا يفيد.

٥. **الوحدة والابتعاد عن الفرقة :**يُربي على أهمية الوحدة بين المسلمين والاعتصام بحبل الله جميعًا.

بكل هذه الجوانب، يتجاوز "شرح السنة" كونه مجرد كتاب عقيدة ليصبح منهجًا تربويًا متكاملًا يُشكل وعي المسلم ويُقوّم سلوكه على أساس من السنة النقية.